

وقفة عند قبر أبي

كان صباحاً . . . داكن السحنة . . . غطاء الضباب
لم أنم في الليل . . .
نبضي مثل حبات جليد . . .
مثل نقر أصابع في صدر باب
كانت الساعة في الحائط . . . أجراس كنائس
قرع طبل . . . آتياً من قلب غاب
كان كل الليل أسئلة
تطوف بخاطري . . . حيرى . . . ولا تلقى جواب
لم أكن أعرف ان الحزن . . .
لو ضلت خطاه الى ضحيته . . . سينتظر المآب

كان شيئاً غامضاً يوحي بأن غداً
 سيحمل في حناياه . . مصاب
 عندما بدأت خيوط الفجر . . تتدلى
 كمسبحة . . معلقة على صدر كتاب .
 جاءني الخبر الذي ما كنت أرصد نجمه
 المخبوء من خلف حجاب
 برقية . . سادية الكلمات . . شاحبة الحروف
 على الأصابع بالحساب
 « أحسن الله عزاءك . . ملت والدك . . ووري التراب »
 وشعرت أن النبض يضعف في شراييني .
 ووجه الله غياب
 ولمست أجنحتي . . لتحملني . . أطير بها الى الأرض الخراب
 فسندت ظهري . . لم أصدق . .
 كان حلماً . . كان رؤياً . . كان شيئاً كالضباب
 كنت أقسم أن أشد على يديه مودعاً
 لو آذنت شمس المغيب
 وجاء أجله في الكتاب

(٥)

ما زال في ظني فراق الوالدين أشد أنواع العقاب
 قد كان . . ودعني . . وأوصاني . . وأجهش . .
 عندما عانقته وقت الذهاب
 قد كان يهمس لي . . يذكّرني يقول :
 « ان الله ما شق حنكاً ضيعه »
 فلتلتفت للعلم في كل الرحاب
 وأحمل هموم الزوج والأطفال . . دعني هاهنا
 وغداً ستلقاني - بإذن الله - موفور الشباب
 ما زلت أذكر رنة الكلمات . . في أذني . . لها نبض ووقع وانسياب
 قد جاوز السبعين لم يذهب الى العراف أو يفتح كتاب
 ما كان يرضى أن يساق الى طبيب عندما يشكو
 ويكره أن يعالج . . بالحاية . . والحجاب
 وأنا الطبيب . . خرجت من صلب الفقيد
 ومشاءت الأقدار تحرمني وداعه يوم غاب
 وفقدت أجر علاجه
 وبقي رضاؤه عني . . وعفوه لي ثواب
 لكن شهر الحزن في بريطانيا

كالقرن . . لو قيست لياليه بلحظات العذاب
وفقدته . . وفقدت يوم وفاته دفء المودة والثقة
روح السمو تدور في فلك الحياة المشرقة
وفقدت في وسط الزحام . . صفاء روح صادقة
قد أوقدت كل الشمس . . ولم تعد متألمة
وورثت من أخلاقه روح المروءة . . مطلقة
سبقت بها نفسي الحزينة . . قلقة . . وممزقة
بشجاعة القلب الذي يفنى . . ليفدي منطقته
ويناطح الأقدار كي تبقى المنارة سامقة
ويغوص في عمق البحار الى شواطئ مورقة
يمشي على جمر الحقيقة في صخور محرقة
يقضي حياته في الكفاف وفي أشد الضائقة
عف اليدين فلا يمس غنائم المسترزة
كالسيف يبقى وحده . . عن حفنة متسلقة
انموذجاً للكبرياء . . وصورة فوق الجدار معلقة
ستظل فادرة المثال . . وبالمعاني ناطقة
عيناه راصدتان خطواتي تتابع في الطريق مزالقة

كلماته كالشوك في الكف إذا امتدت لشي سارقة
وتشدني لو رغبة خفت بقلبي في لقاء معانقة
أو دندن الكأس الطروب عذوبة متدفقة
قد كان صباحاً . . . داكن الغيمات عطشى . . . خانقة
قد أثقلت عيني . . . ولم تترك أمامي بارقة
تركت على جفني دموع الغريبة . . . المغرورقة
زوجي وأطفالي شتات جزيرة . . . معزولة . . . متفرقة
قذفت بها الأمواج بضع متاع مركبة الضياع الغارقة
فالخزن في بريطانيا . . . كالسجن . . . في زنزانة . . . فردية ومطوقة

مارس ٧٣